كتاب القديم (البيان والتبيين)

المحاضرة الاولى

د. رائد عكلة الدليمي

الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، هو أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة سنة ١٦٠ توفي فيها سنة ٢٥٥ هـ من مؤلفاته البخلاء والبرصان والعميان والبيان والتبيين والمحاسن والاضداد والحيوان وكتاب القيان وكتاب حجج النبوة ورسالة التربيع والتدوير ومناقب الترك والمعاش والمعاد .

مميزات اسلوبه :

١- مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهو يقول : ((ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات فيجعل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما))

.

٢- البيان والابتعاد عن حوشي الكلام وغريبه ووضوح الدلالة فهو يقول (على قدر وضوح الدلالة وصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون اظهار المعنى وكلما كانت الدلالة اوضح وافصح وكانت الاشارة ابين وانور كان انفع وانجح)

٣- الاستطراد ، واراد به دفع الملل والسامة عن القارئ وتفكيها للنفس وترويحاً لها من التعب والعناء وتنشيطا لمتابعة القضايا والمسائل التي يتناولها بالبحث والاستقصاء جاء في كتاب الحيوان (قد عزمت والله الموفق اني اوشح هذا الكتاب وافصل ابوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الاحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل فاني رأيت الاسماع تمل الاصوات المطربة والاغاني الحسنة والاوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها)

٤- مزج الجد بالهزل والضحك والمرح لتحبيب القراءة والمتابعة وشحذ الذهن وتجديد النشاط قال (وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات ان يحمل اصحابها على الجد والصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود)

٥- العناية بالألفاظ وتركيب العبارات والجمل بلا تكلف او تصنع فهو يقول (اذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة)

٦- التلوين الصوتي او الموسيقي الذي يعتمد على السجع ياتي عفو الخاطر والمزاوجة والترادف والجمل الاعتراضية مثل قوله (لا اعلم قرينا احسن موافاة ولا اعجل مكافاة ولا احضر معونة ولا اخف مؤونة ولا شجرة اطول عمرا ولا اجمع امرا).

"البيان والتبيين"

شرح العنوان:

*لما كان المركب يعرف بشرح مفرداته ؛ رأينا أن نشرح مفردات هذا العنوان ، لنقف على معناه بجلاء.

/1فالبيان ؛ من بانَ الشيء يَبينُ بَياناً اتضح فهو بَيِّنٌ، وكذلك أَبانَ الشيءُ فهو مُبينٌ .فالمراد به الدلالة وغيرها مما يوضح به الشيءُ ، وكذلك الفهم وذكاء القلب مع اللِّسان اللَّسِن . يقال : فلان أبْيَنُ من فلان أي أفصح منه، وأوضح كلاما.

/2والتبيين ؛ من تَبَيَّنَ الشيءُ إذا ظَهَرَ ، و التَّبْيينُ: الإيضاح والوُضوحُ . وفي المثل : قد بَيَّنَ الصبح لذي عينين

المبحث الثاني : لماذا هذا الكتاب ؟

*يذكر الجاحظ في : «...وقال تبارك وتعالى (وَمَا أَرسَلنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم) [إبراهيم:٤]؛ لأن مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهيم، وكلَّما كان اللسان أبيَنَ، كان أحمدَ، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة، كان أحمد. والمُفهِّم لك والمُتفهِّم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهِّم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم.

ما الغرض من تصنيف هذا الكتاب ؟:

*واضح من أوائل الكتاب أنه مصنف لشخص يجله المصنف، فهو في أكثر من مقام يعترض كلامه بعبارة (أبقاك الله ، وربما خاطبه بضمير الجمع ، كقوله : «...والذي نحن ذاكروه من ذلك في هذا الموضع قليل من كثير مما ذكرناه في كتاب العرجان، فإن أردتموه فهو هناك موجودٌ، إن شاء الله تعالى () «، وقوله : «...بكلام مستكرة تجدهم في الجزء الثالث وقوله : «وهذا باب يقع في كتاب الجوارح... وهو وارد عليكم بعد هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى. () «

ولم نقف على تسمية الشخص المراد في الكتاب ، لكن قد نقلت كتب التراجم عن الجاحظ قوله : «أهديت إلى محمد بن عبد الملك كتاب «الحيوان»، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب «البيان والتبيين» إلى

أحمد بن أبي دؤاد، فأعطاني كذلك، وأهديت كتاب «الزرع والنخل» إلى ابراهيم الصولي، فأعطاني مثلها فرجعت إلى البصرة ومعي ضيعة، لا تحتاج إلى تحديد ولا إلى تسميد .وهؤلاء الثلاثة الذين سمّاهم كلهم وزراء ، والمعني منهم بهذا الكتاب ابن أبي دؤاد.

أسلوب الكتاب ومنهجه:

*يعتبر البيان والتبيين من أواخر مؤلفات الجاحظ ، فقد ألف كتاب الحيوان وعمره اثنان وثمانون عاما، ونراه هنا يحيل عليه ، فهو من أواخر تصانيفه، بلا ريب، وهو كتاب في الأدب يتناول فيه موضوعات متفرقة مثل الحديث عن الأنبياء والخطباء والفقهاء والأمراء والحديث عن البلاغة واللسان والصمت والشعر والخطب والرد على الشعوبية واللحن والحمقى والمجانين ووصايا الأعراب ونوادرهم والزهد، وغير ذلك.

*ولقد شبه بعضهم أسلوب الجاحظ بأسلوب قصص ألف ليلة وليلة المتداخلة؛ إذ أن شهرزاد تحكي لشهريار قصة ، ثم يحكي أحد أبطال هذه القصة قصة فرعية، وتتخلل القصة الفرعية قصة ثالثة ورابعة أحيانًا، ثم تعود للقصة الأساسية. فالجاحظ يتناول موضوعًا ثم يتركه ليتناول غيره، ثم يعود للموضوع الأول، وقد يتركه ثانية قبل أن يستوفيه وينتقل إلى موضوع جديد، وهكذا؛ فكل فصل من الفصول من «البيان والتبيين» –كما يقول أحمد أمين – : «فوضى لا تضبط، واستطراد لا يحد. «

*وقد جزأ المصنف كتابه إلى ثلاثة أجزاء ، مقسمة إلى صدر وصلب ، وربما قطع الجزء الواحد بأكثر من بسملة ، ولعل ذلك لأنه كان يؤلفه على مراحل ، فكلما استأنف العمل فيه ، ابتدأ بالبسملة تبركا واستعانة. () وختم بقوله : «وهذا –أبقاك الله– آخر ما ألفناه من كتاب «البيان والتبيين»، ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته، وأردناه من تأليفه، فإن وقع على الحال التي أردنا، وبالمنزلة التي أملنا؛ فذلك بتوفيق الله وحسن تأييده، وإن وقع بخلافها، فما قصَّرنا في الاجتهاد، ولكن حُرمنا التَّوفيق . والله تعالى أعلم.

محتوى الكتاب:

*لاحظ أبو هلال حسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ) عسر تحصيل المباحث اللغوية والأدبية من كتاب «البيان والتبيين»، وقرَّر ذلك في كتابه «صناعتا النظم والنثر» قائلا : «إن أنواع البيان والبلاغة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة، لا توجد إلا بالتأمل .وبناء على هذا الكلام يمكننا أن نقسم الكتاب إلى بابين كبيرين؛ هما:

باب الكلام : ويندرج تحته مجموعة فصول تتعلق باللسان وما يتصل به من مخارج الحروف واختلاف طرق الأداء واللحن ، والفصاحة.

وباب البلاغة: ويضم فصولا تشتمل على تعريفها ، وذكر ما يتعلق بها ، وذكر الخطبة وآدابها وشروطها وأصحابها ، وعلومها.

على أن تضاعيف السطور لا تخلو من مباحث ، لو رحنا نستقصيها ، لجعلناها في أبواب مفردة كثيرة، كمثل تراجم الأعلام من الشعراء والخطباء وغيرهم، وذكر معتقدات بعضهم كبشار بن برد، وعقد الموازنات بين

الشعراء والخطباء ، وإيراد الانتقادات على جامعي اللغة وأئمتها، في سلسلة يطول ذكرها ، ولا يعرف تفصيلها إلا بمباشرتها.

القيمة العلمية للكتاب:

*أجمع جل من ترجموا للجاحظ على أن كتابيه «الحيوان» و«البيان والتبيين» هما أجل تصانيفه، وأوسعها فائدة، وأوسعها انتشارا . قال ابن خلكان : «ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب «الحيوان» فلقد جمع كل غريبة ، وكذلك كتاب «البيان والتبيين. ««

*والجاحظ نفسه يثني على كتابه هذا، ويحث على مدارسته؛ يقول –رحمه الله–: «ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة، فوجدها على ما أمر به، وصرت إليه، وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها، قال لي : قد كان بعض من نرتضي عقله ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة، فقلت قد تربي الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة، فلما فليتها أربى الفَلي على العيان، كما أربى العيان على الصفة . وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه، قد جمع استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل، والمخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي.

المحاضرة الثانية

[باب عيوب البيان]

[العي]

قال أبو عثمان عمرو بن بحر، رحمه الله:

اللهمّ إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السّلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العيّ والحصر. وقديما ما تعوذوا بالله من شرهما وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما.

وقد قال النّمر بن تولب «١» :

أعذني ربّ من حصر وعيّ ... ومن نفس أعالجها علاجا

وقال الهذلي «١» :

ولا حصر بخطبته ... إذا ما عزّت الخطب

وقال مكّيّ بن سوادة «٢» :

حصر مسهب جريء جبان ... خير عيّ الرجال عي السكوت

وقال الآخ"وقال رجل للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من بلغك حاجته، وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسة ولا استعانة، فهو بليغ، قالوا: قد فهمنا الإعادة والحبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عثنونه، أو يفتل أصابعه، أو يكثر التفاته من غير موجب، أو أن يتساءل من غير سعلة أو ينبهر في كلامه.

وقال الشاعر:

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ وَالْتِفَاتٍ وَسُعْلَةٍ ♦♦♦ وَمَسْحَةِ عُثْنُونٍ وَفَتْلِ الأَصَابِعِ:

مليّ ببهر والتفات وسعلة ... ومسحة عثنون وفتل أصابع

ومما ذموا به العي قوله:

وما بي من عي ولا أنطق الخنا ... إذا جمع الأقوام في الخطب محفل

وقال الراجز وهو يمتح بدلوه:

علقت يا حارث عند الورد ... بجابيء لا رفل التردّي

ولا عييّ بابتناء المجد «٣»

وهذا كقول بشار الأعمى «٤» :

وعيّ الفعال كعي المقال ... وفي الصمت عيّ كعي الكلم

وهذا المذهب شبيه بما ذهب إليه شتيم بن خويلد في قوله «٥» :

ولا يشعبون الصدع بعد تفاقم ... وفي رفق أيديكم لذي الصّدع شاعب

ال: وقيل لبزرجمهر بن البختكان الفارسي «٢» : أي شيء أستر للعييّ؟

قال: عقل يجمله. قالوا: فإن لم يكن له عقل. قال: فمال يستره. قالوا: فإن لم يكن له مال؟ قال: فإخوان يعبرون عنه. قالوا: فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه؟ قال: فيكون عييا صامتا. قالوا: فإن لم يكن ذا صمت. قال: فموت وحي خير له من أن يكون في دار الحياة.

وسأل الله عز وجل موسى بن عمران، عليه السلام، حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة لتي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه: وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي.

وأنبأنا الله تبارك وتعالى عن تعلق فرعون بكل سبب، واستراحته إلى كل شغب، ونبهنا بذلك على مذهب كل جاحد معاند، وكل محتال مكايد، حين خبرنا بقوله: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ. وَلا يَكادُ يُبِينُ.

وقال موسى عليه السلام: وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي

وقال: وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة.

ولله عز وجل أن يمتحن عباده بما شاء من التخفيف والتثقيل، ويبلو أخبارهم كيف أحب من المحبوب والمكروه. ولكل زمان ضرب من المصلحة ونوع من المحنة، وشكل من العبادة.

ومن الدليل على أن الله تعالى حل تلك العقدة، وأطلق ذلك التعقيد، والحبسة، قوله: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي

إلى قوله: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى

. فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء، لعموم الخبر.

المحاضرة الثالثة

(لثغة واصل بن عطاء وأخباره)

ولما علم واصل بن عطاء «٤» أنه ألثغ فاحش اللثغ، وإن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذا كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال، ومن

الخطب الطوال وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزين به المعاني، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان متمكن والقوة المتصرفة، كنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد، مع لباس التقوى وطابع النبوة، ومع المحنة والاتساع في المعرفة، ومع هدي النبيين وسمت المرسلين، وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة. ولذلك قال بعض شعراء النبي صلّى الله عليه وآله:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بداهته تنبيك بالخبر

ومع ما أعطى الله تبارك وتعالى موسى، عليه السلام، من الحجة البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبرهانات الواضحة، إلى أن حل الله تلك العقدة وأطلق تلك الحبسة، وأسقط تلك المحنة. ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة– رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل.

ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا، ولطرافته معلما، لما استجزنا الإقرار به، والتأكيد له. ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان.

واللثغة في الراء تكون بالغين والذال والياء، والغين أقلها قبحا، وأوجدها في كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم.

وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم، بالغين، فإذا حمل على نفسه وقوم لسانه أخرج الراء. وقد ذكره في ذلك أبو الطروق الضبي فقال:

عليم بإبدال الحروف وقامع ... لكل خطيب يغلب الحق باطله

وكان وا لي أشايع غزالا له عنق ... كنقنق الدوّ إن ولى وإن مثلا «١»

عنق الزرافة ما بالي وبالكم ... أتكفرون رجالا أكفروا رجلا

فلما هجا واصلا وصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وقال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار

وجعل واصل بن عطاء غزالا، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله، فقيل له: وعلي أيضا؟ فأنشد:

وما شر الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

قال واصل بن عطاء عند ذلك: «أما لهذا الأعمى الملحد المشنف «٢» المكني بأبي معاذ من يقتله. أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية «٣» ، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلي أو سدوسي» . قال إسماعيل بن محمد الأنصاري، وعبد الكريم بن روح الغفاري: قال أبو حفص عمر بن أبي عثمان الشمري: ألا تريان كيف تجنب الراء في كلامه هذا وأنتما للذي تريان من سلامته وقلة ظهور التكلف فيه لا تظنان به التكلف، مع امتناعه من حرف كثير الدوران في الكلام. ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار، وابن برد، والمرعث، جعل المشنف بدلا من المرعث، والملحد بدلا من الكافر، وقال: لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية، ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية «٤» ، لمكان الراء، وقال: لبعثت إليه من يبعج بطنه، ولم يقل: لأرسلت إليه، وقال: على مضجعه، ولم يقل: على فراشه.اصل بن عطاء قبيح اللثغة شنيعها، وكان طويل العنق جدا، ولذلك قال بشار الأعمى:

ما لي أشايع غزالا له عنق ... كنقنق الدوّ إن ولى وإن مثلا «١»

عنق الزرافة ما بالي وبالكم ... أتكفرون رجالا أكفروا رجلا

فلما هجا واصلا وصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وقال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار

وجعل واصل بن عطاء غزالا، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله، فقيل له: وعلي أيضا؟ فأنشد:

وما شر الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

قال واصل بن عطاء عند ذلك: «أما لهذا الأعمى الملحد المشنف «٢» المكني بأبي معاذ من يقتله. أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية «٣» ، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه، ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلي أو سدوسي» .

قال إسماعيل بن محمد الأنصاري، وعبد الكريم بن روح الغفاري: قال أبو حفص عمر بن أبي عثمان الشمري: ألا تريان كيف تجنب الراء في كلامه هذا وأنتما للذي تريان من سلامته وقلة ظهور التكلف فيه لا تظنان به التكلف، مع امتناعه من حرف كثير الدوران في الكلام. ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار، وابن برد، والمرعث، جعل المشنف بدلا من المرعث، والملحد بدلا من الكافر، وقال: لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية، ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية «٤» ، لمكان الراء، وقال: لبعثت إليه من يبعج بطنه، ولم يقل: لأرسلت إليه، وقال: على مضجعه، ولم يقل: على فراشه.

كان إذا أراد أن يذكر البر قال: القمح أو الحنطة. والحنطة لغة كوفية والقمح لغة شامية. هذا وهو يعلم أن لغة من قال بر، أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة. وقال أبو ذؤيب الهذلي:

لا درّ دري إن أطعمت نازلهم ... قرف الحتيّ «١» وعندي البر مكنوز

(حروف اللثغة)

ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة وما يحضرني منها:

قال أبو عثمان: وهي أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء.

فاللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء، كقولهم لأبي يكسوم: أبي يكثوم، وكما يقولون بثرة، إذا أرادوا بسرة. وبثم الله إذا أرادوا بسم الله.

والثانية اللثغة التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف طاء، فإذا أراد أن يقول: قلت له، قال: طلت له، وإذا أراد أن يقول قال لي، قال: طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله: اعتلك: اعتييك، وبدل جمل: جمى. وآخرون يجعلون اللام كافا، كالذي عرض لعمر أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا، قال: مكعكة في هذا.

وأما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف: فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال:

مي، فيجعل الراء ياء. ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال: عمغ، فيجعل الراء غينا. ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال: عمذ، فيجعل الراء ذالا.

المحاضرة الرابعة

(الفرق بين اهل مكة واهل البصرة)

حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح «١» قال: قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم. أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل:

وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ

. وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية، وتجمعون هذا الاسم على علالي، ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف. وقال الله تبارك وتعالى: غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ

وقال: وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ

. وأنتم تسمون الطلع الكافور والا غريض ونحن نسميه الطلع. وقال الله تبارك وتعالى: وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ

. فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا. ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البطيخ الخربز، ويسمون السميط الرزدق «٢» ، ويسمون المصوص المزور «٣» ، ويسمون الشطرنج الاشترنج، في غير ذلك من الأسماء وكذلك أهل الكوفة، فإنهم يسمون المسحاة بال، وبال بالفارسية.

ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه، إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب.

ويسمي أهل الكوفة الحوك الباذروج «٤» ، والباذروج بالفارسية، والحوك كلمة عربية. وأهل البصرة إذ التقت أربع طرق يسمونها مربعة، ويسميها أهل الكوفة الجهار سوك، والجهار سوك بالفارسية. ويسمون السوق والسويقة

وازار» ، والوازار بالفارسية. ويسمون القثاء خيارا، والخيار بالفارسية. ويسمون المجدوم ويذي، بالفارسية.

وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب

ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.

والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر.

وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو أولى بذلك منه. ألا ترى العامة أن ابن القرية «١» عندها أشهر في الخطابة من سحبان وائل. وعبيد الله بن الحر «٢» أذكر عندهم في الفروسية من زهير بن ذؤيب. وكذلك مذهبهم في عنترة بن شداد، وعتيبة بن الحارث

المحاضرة الخامسة[طبقات الكلام]

وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقي. وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكلّ قد تكلموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل، ولا بينهم في ذلك تفاوت، فلم ذكروا العييّ والبكيء، والحصر والمفحم، والخطل والمسهب، والمتشدّق، والمتفيهق، والمهمار، والثرثار، والمكثار والهمار، ولم ذكروا الهجر والهذر، والهذيان والتخليط وقالوا: رجل تلقّاعة «٧» ، وفلان يتلهيع في خطبته «٨» . وقالوا: فلان يخطىء في جوابه، ويحيل في كلامه، ويناقض في خبره. ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء.

وأنا أقول: إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق، ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء.

وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا، إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني. وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني. كما أن النادرة الباردة جدا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدا. وإنما الكرب الذي يختم على

القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا باردة، وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط، وإنما الشأن في الحار جدا والبارد جدا.

وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول: والله لفلان أثقل من مغن وسط وأبغض من ظريف وسط.

ومتى سمعت– حفظك الله– بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب، والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم. وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، وبقرب مجامع الأسواق.

ولأهل المدينة ألسن ذلقة، وألفاظ حسنة، وعبارة جيدة. واللحن في عوامهم فاش، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب.

واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر. وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد. وكما يستملحون اللثغة إذا كانت حديثة السن، ومقدودة مجدولة، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح.

وربما كان اسم الجارية غليّم أو صبيّة أو ما أشبه ذلك، فإذا صارت كهلة جزلة، وعجوزا شهلة، وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالا وبناتها نساء، فما أقبح حينئذ أن يقال لها: يا غليم كيف أصبحت؟ ويا صبية كيف أمسيت.

ولأمر ما كنّت العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل، وقالت أم عمرو وذهبت أم حكيم. نعم حتى دعاهم ذلك إلى التقدم في تلك الكنى وقد فسرنا ذلك كله في كتاب الأسماء والكنى، والألقاب والأنباز «١» :

وقد قال مالك بن أسماء «٢» في استملاح اللحن من بعض نسائه:

أمغطّى مني على بصر لل ... حب أم أمنت أكمل الناس حسنا

وحديث ألذه هو مما ... ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيا ... نا وأحلى الحديث ما كان لحنا

(المحاضرة السادسة)

[حد البيان]

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا. وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مجلوفا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما.

وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين .

وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والأفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعلم– حفظك الله– أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة.

[أدوات البيان الخمس]

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية

مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرحا.

قال أبو عثمان: وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكنا أخرّناه لبعض التدبير.

وقالوا: البيان بصر والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى.

والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل.

قد قلنا في الدلالة باللفظ. فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا.

والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة. ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا ... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر:

وللقلب على القلب ... دليل حين يلقاه

وفي الناس من الناس ... مقاييس وأشباه

وفي العين غنى للمر ... ء أن تنطق أفواه

وقال الآخر في هذا المعنى:

ومعشر صيد ذوي تجلّه ... ترى عليهم للندى أدلّه

وقال الآخر:

ترى عينها عيني فتعرف وحيها ... وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره ... وتعرف بالنجوى الحديث المعمسا

وقال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ... من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامته ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت.

والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف. وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل «١» والتقتل والتثني «٢» ، واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور.

المحاضرة السابعة

[حد البلاغة]

الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلّى الله على محمد خاصة، وعلى أنبيائه عامة.

خبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان، وحدثني محمد بن أبان– ولا أدري كاتب من كان– قالا:

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

(مفهوم البلاغة عند سهل بن هارون)

وخالف عليه سهل بن هارون في ذلك، وكان سهل في نفسه عتيق الوجه، حسن الشارة، بعيدا من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان وبالنبل قبل التكشف. فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده وإن أدخل ذلك على حالة النقص.

قال سهل بن هارون: لو أن رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا وكان أحدهما جميلا جليلا بهيا، ولباسا نبيلا، وذا حسب شريفا، وكان الآخر قليلا قميئا، وباذّ الهيئة دميما «١» ، وخامل الذكر مجهولا، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذ الهيئة على ذيلهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التعجب منه سببا للعجب به، ولصار الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد. فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، وظهر منه خلاف ما قدروه، تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكبر في عيونهم لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع. وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد، وتعجبهم به أكثر.

[مفهوم البلاغة عند الهند]

قال معمّر، أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند، مثل منكة وبازيكر وقلبرقل وسندباد وفلان وفلان: ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها.

قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها:

أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كلّ التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتظرف. قال: ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصرا، ولا مشتركا، ولا مضمّنا، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقا، ولهول تلك المقامات

معاودا. ومدار الأمر على أفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا، وفي

[مفهوم البلاغة عند العرب]

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول. قال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصحّار بن عياش العبديّ «١» . ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال:

شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عرض القوم:

يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبسر والرطب، أبصر منهم بالخطب. فقال له صحار: أجل والله، إنا لنعلم أن الريح لتلقحه، وأن البرد ليعقده، وأن القمر ليصبغه، وإن الحر لينضجه.

وقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطىء، وتقول فلا تخطىء.

فقال له معاوية: أو كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطىء ولا تخطىء.

وشأن عبد القيس عجب، وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين:

ففرقة وقعت بعمان وشقّ عمان، وهم خطباء العرب، وفرقة وقعت إلى البحرين وشقّ البحرين، وهم من أشعر قبيل في العرب، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية وفي معدن الفصاحة. وهذا عجب.

ومن خطبائهم المشهورين: صعصعة بن صوحان، وزيد بن صوحان، وسيحان بن صوحان. ومنهم صحار بن عياش. وصحار من شيعة عثمان، وبنو صوحان من شيعة علي.

ومنهم مصقلة بن رقبة، ورقبة بن مصقلة، وكرب بن رقبة.

إذا صرنا إلى ذكر الخطباء والنسابين، ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر ما يحضرنا، وبالله التوفيق.

قال لي ابن الأعرابي «١» : قال لي المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

قال ابن الأعرابي، قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت الله لنا بدعوات.

فقال: اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا! فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. فقال: نعوذ بالله من الإسهاب

المحاضرة الثامنة

(عيوب فصاحة الكلام)

نعني بفصاحة الكلام خلوصه عن كل ما يعيبه وسلامته من الاخطاء التركيبة التي تخرجه عن دائرة الحسن ، وتطرق الجاحظ الى هذه العيوب في كتابه البيان والتبيين :

١- تنافر الكلمات : وهي من العيوب التي تخل بفصاحة الكلام وقد اوضح الجاحظ عن رأيه في هذا العيب بقوله : ((إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة)) .

فالجاحظ يبين في قوله هذا تنافر الكلمات كتنافر كلمات الشعر فيرى ان تنافرها يجعل الكلام مستكرهاً ، مذموما لدى السامع والقارئ ، فتنافر الالفاظ يجعل الكلام ثقيلا يصعب على القارئ النطق بها متجاورة .

وورد في كتاب الجاحظ امثلة على ذلك :

وبعض قيض القوم أولاد علة ... يكد لسان الناطق المتحفظ «١»

من خلال هذا البيت الشعري نجد الجاحظ يشبه تنافر كلمات بعض القوم بأولاد العلة وكأنها بنو رجل واحد من أمهات شتى، فتنافرها يجهد لسان الناطق . كما نجده لا يكتفي بهذا التحديد والتوضيح بل يعتمد على مجموعة من الاشعار يسوق الشاهد والمثال ويبن العيب الذي يطرأ على الكلمات والذي جعلها فصيحة في انظار السامعين واصحاب الذوق اذ يورد قوله حول تنافر الالفاظ : ((ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن، صدقوا بذلك. من هذا فان تنافر الالفاظ يعد عيبا من عيوب الفصاحة لما فيه من صعوبات في نطق ألفاظ متجاورة متتالية

ومن ذلك قول ابن يسير في أحمد بن يوسف حين استبطأه:

هل معين على البكا والعويل ... أم معز على المصاب الجليل

ثم قال:

لم يضرها، والحمد لله، شيء ... وانثنت نحو عزف نفس ذهول

فعند تفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ منها البعض ، ومعنى هذا أن البيت الشعري الواحد نجد الألفاظ غير متلاحمة ومتماسكة كأنها تنطق كل لفظة على حدة، فتجد اللفظة الواحدة تتبرأ وتبتعد عن أختها

وقال أبو العاصي: وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي:

وشعر كبعر الكبش فرق بينه ... لسان دعي في القريض دخيل

وأما قوله «كبعر الكبش» ، فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد.

فهذا في اقتران الألفاظ. فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير. والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير. وهذا باب كبير. وقد يكتفي بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري.

ولهذا أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.

٢ – ضعف التأليف: عيبا من عيوب فصاحة الكلام، فهو يخل به ويمس بقواعد اللغة العربية ، ويؤدي بذلك إلى الإخلال بالضوابط النحوية التي تعد الأساس واللبنة الاساسية التي يقوم عليها كل بناء ، فالجاحظ لم يدرس هذا العيب وانما تطرق اليه في حديثه عن اللحن في قوله « زعم أصحابنا البصريون عن أبي عمرو وحديثه عن اللحن : لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج،وكان – زعموا– لا يبرئهما اللحن)) والامثلة التي ذكرها الجاحظ نذكر منها وحكى الكسائي انه قال لغلامه من خلقك ؟ وجزم القاف ، فلم يدر ما قال ،

ولم يجبه ، فرد عليه السؤال فقال الغلام : لعلك تريد من خلقك)) ومن هذا فان ضعف التأليف يؤدي الى عدم فهم ما قصده المتلقي بالضرورة يؤدي الى عدم فهم السامع ما اراد منه .

٣-التعقيد : وهو كذلك عيب من عيوب الفصاحة ، ويكون في الكلام ويكون غير واضح الدلالة ويكون ذلك اما لخلل في لفظه واما في معناه ويظهر ذلك من خلال قول الجاحظ : ((اياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد وهو الذي يستهلك معانيك ويثني الفاظك ، ومن اراغ معناً كريما فليتمس له لفظا كريما)).ويشير هنا الى اختيار اللفظ المناسب فلا يجب ان يكون صعبا ذا دلالة غامضة .